قرطبة حاضرة الخلافـــة الأمويـــة

الدكتور محمد الشريف قاهر *

دخل الإسلام إلى الأندلس عام 92هـ 711 م، ونشر فيها راية العدل وحكم السماء، فامتلأت نورا واطمئنانا بعد أن كانت تئن جورا وجهلا واستغلالا من الحكام القوطيين الجائرين. واستمر الوجود الإسلامي في هذه البلاد طيلة ثمانية قرون (92-897هـ - 711-1492م)

إن البناء والتشييد لا يتم إلا حيث السلم والاطمئنان، كما أن الإنتاج الأدبي والإبداع الفكري والعلمي لا يكون إلا حيث الأمن والهناء ورغد العيش وحرية التفكير والتعبير وفتح المجال للتنافس والنقد البناء المثمر، وهذا ما نراه يحدث في الأندلس، ففي السنوات الأولى من الفتح كانت هناك حروب ومنازعات، ومنافسات على السلطة والحكم، فقل الإنتاج وضعف الإبداع. فلما استقرت الأوضاع السياسية، وانصهرت جميع الأجناس المتساكنة بالأندلس من عرب وبربر وموالي ومسالمة ومولدين ومستعربين من السكان الأصليين للبلاد ومن يهود وبعد أن اختلط الجميع بحكم الجوار وامتزجت دماء السكان بالتزاوج والمصاهرة. واعتنق معظم أهل البلاد الأصليين الإسلام عن رغبة واقتناع، فشمل الجميعَ روح التسامح الإسلامي واستظلوا تحت ظل العدل الإلهي، فتكون من مجموعهم مجتمع أندلسي يعتز بالعروبة والإسلام لغة ودينا، ويفتخر بالأندلس وطنا وأُمّا.

* .عضو المجلس الإسلامي الأعلى.

وبدأت تظهر العبقريات من أدباء: نثرا وشعرا، ومن علماء في الدين واللغة والهندسة والرياضيات والطب والفلسفة حتى أصبحت قرطبة تنافس بغداد، ودمشق والقاهرة، وبجاية وتلمسان، وفاسا وأخذ نورها يشعُّ على أروبا التي كانت تعيش آن ذاك في الجهل والاستبداد والتأخر المميت والسبات العميق بينما كانت قرطبة تعيش عهد الازدهار الحضاري في جميع الميادين وخاصة في عهد الخليفة عبد الرحمن النّاصر وابنه الحكم المستنصر بالله وكانت هي المركز الذي تتركز فيه حضارة الأندلس باعتبارها العاصمة، وأم المدن، ومقر الفنون والأدب، وهي تقع على سفح جبل العروس من جبال الوادي، "سيرامورنيا" وتحتل سهلا فسيحا يقع بين هذه الجبال والوادي الكبير، فكان نهرها " مكثفا بديباج المروج، مطرزا بالأزهار، تصدح في جنباته الأطيار، وتنعر النواعير ويبسم النوار[1].وبلغت مستوى من الرخاء والثراء لم تبلغه حاضرة أخرى من قبل، فكانت قرارة أولي العقل والتقى، ووطن أولى العلم والنهى، ومن أفقها طلعت نجوم الأرض وأعلام العصر وفرسان أولي النظم والنثر، وبها أنشئت التآليف الرائقة، وصنفت التصانيف الفائقة[2]. كما كانت أكثر بلاد الأندلس كتبا، وأهلها أشد الناس اعتناء بخزائن الكتب حتى قيل " إذا مات عالم بإشبيلية فأريد بيع كتبه حملت إلى قرطبة حتى تباع فيها، وإذا مات مطرب بقرطبة فأريد بيع آلاته حملت إلى إشبيلية[3] وبلغت من العمران والتمصير زمن الخلافة غاية الازدهار. وينقل المقري أن دورها بلغت في زمن ابن أبي عـــامر (213077) دارا للعامة و(6300) دارا للأكابر والوزراء والكتاب والأجناد، بالإضافة إلى مصاري الكراء والحمامات

1. "نفح الطيب" للمقري : 146/1.
2. المصدر السابق : 9/2 بتصرف.
3. المصدر السابق : 14/1.

والخانات، وبلغ عدد حوانيتها (80555) حانوتا، وبلغ عدد حماماتها (911) حماما وعدد مساجدها 3877 مسجدا[1].

ظلت قرطبة في ازدهار وتقدُّم وتسامح ورخاء حتى سقطت الخلافة الأموية، ودخلها البربر عام (1010هـ)مع سليمان المستعين الأموي، حين استولى عليها في بداية عهده الذي افتتحه بالقهر وسفك الدماء، فهدمها مع جيشه الذي أغلبيته من البربر، وسلبوا محاسنها، ومحوا مآثرها. يقول الإدريسي: "وبعد ذلك طحنتها النوائب، واعتورتها المصائب، وتوالت عليها الشدائد والأحداث فلم يبق من أهلها إلا البشر اليسير على كبر اسمها وفخامة أهلها[2].ورغم كل هذه النكبات فقد بقيت محتفظة ببعض عظمتها وتفوقها في المجال الفني والصناعي والأدبي حتى استولى عليها فرناندو الثالث Fernando III في 27 شوال عام 633هـ الموافق لـ 29 يونيو سنة 1236م فعاثت فيها جيوش قشتمالة، وأثار سقوطها الحزن والهلع في نفوس المسلمين،وتحول جامعها العظيم إلى كنيسة كبرى،وقد بدأ ببنائه عبد الرحمن الداخل عام 169 هـ - 775 م وأتمه ابن أبي عامر عام 377هـ وهجر قرطبة عدد كبير من سكانها المسلمين، واستبدلوا بغيرهم.

قرطبة والحركة العلمية والأدبية

لقد نشطت الحركة العلمية والأدبية في عهد بني أمية بقرطبة نشاطا لم تشهد له نظيرا من قبل حتى أصبح اسمها يقترن بالعلم والعلماء وأولي الفضل والأدباء.

---

1. المصدر السابق 2/ 80/79/78.
2. أ. "نزهة المشتاق" للإدريسي/212
ب. "الروض المعطار" للحميري:158

بأربع فاقت الأمصارَ قرطبة منهن قنطرة الوادي وجامعها
هاتان ثنتان والزهراء ثالثة والعلم أعظم شيء وهو رابعها[1]

فمن الناحية الدينية نجدها تشتمل على المذاهب : المالكي، والشافعي، والظاهري، أما المذهب المالكي فيعود الفضل في إدخاله إلى شخصيتين علميتين عظيمتين هما: زياد بن عبد الرحمان اللخمي المعروف بشبطون، ويحي بن يحي الليثي، ونجد المذهب الشافعي يتسرب إلى قرطبة على يدي قاسم بن محمد بن قاسم بن محمد بن سيار، و ابنه محمد من بعده، وكان قاسم يؤمن بضرورة الاجتهاد والرجوع إلى القرآن والسنة، والاستناد إلى القياس، والإجماع، وقد جعله عبد الرحمن الأوسط كاتبه الخاص، وبقي كذلك حتى وفاته عام (277 هـ - 890م)، وفي أيام الحكم المستنصر بالله تسلل المذهب الظاهري، وكان قد ظهر في العراق على يد داود بن علي المتوفى (270 هـ) واشتهر بهذا المذهب القاضي منذر بن سعيد البلوطي، ولكنه كان يقضي بالمذهب المالكي الرسمي، خشية تعرض بعض فقهاء المالكية له، وهم الأغلبية، وحمل لواء هذا المذهب بعده الفقيه أبو محمد علي بن حزم القرطبي، والذي كان شافعيا، ثم انتقل إلى المذهب الظاهري، فوضع الكتب في هذا المذهب، وقد طعن فيه الفقهاء، وأقصاه الملوك وأبعدوه عن وطنه ومسقط رأسه ، وذكروا أنه صنف 400 مجلد تشتمل على ثمانين ألف ورقة[2].وقد شجع أمراء بني أمية الثقافة والأدب، واحتضنوا الشعراء والكتاب، واهتموا باقتناء الكتب النادرة. فلقد بعث الأمير عبد الرحمن الأوسط عباس بن ناصح الجزيري الثقفي قاضي الجزيرة الخضراء إلى المشرق، للبحث عن الكتب القديمة النادرة، لشرائها، واستنساخ التي لا يوجد منها ما يباع، غير أن الحركة الأدبية والثقافية

1. "الروض المعطار" للحميرى / 158
2. النفح للمقري 228/2.

بلغت ذروتها في عهد الخليفة الحكم المستنصر، حتى قيل" إنه جمع من الكتب مالا يحد ولا يوصف كثرة ونفاسة، وأنها بلغت أربعمائة ألف مجلد، وأنّهم لما نقلوها أقاموا ستة أشهر في نقلها. وكان الحكم عالما نبيها صافي السريرة، وقلّما يوجد كتاب في خزائنه إلا وله فيه قراءة، أو نظر، أوتعليق في أي فن كان، ويكتب فيه نسب المؤلف ومولده ووفاته، ويأتي من بعد ذلك بغرائب لا تكاد توجد إلا عنده لعنايته بهذا الشأن[1].

ولم يكن الحكم مهتما بالأدب والعلم وتشجيع العلماء القائمين بخدمتها فحسب. بل نراه يهتم كذلك بتعليم أبناء الفقراء والطبقات المحرومة من أبناء الشعب، فاتخذ المؤدبين ليعلموهم القرآن، وأنشأ لذلك، حول المسجد الجامع بقرطبة سبعة وعشرين كُتّابا، وأجرى للمعلمين والمؤدبين المرتبات، وعهد إليهم بالاجتهاد والنصح ابتغاء وجه الله تعالى[2].

كما كان الحكم محبا للعلماء، مكرما لهم، يستقدمهم من المشرق،ويرحب بهم، ويرفع منازلهم منهم: أبو علي إسماعيل بن القاسم القالي اللغوي صاحب كتاب "الأمالي" واتفق أنه وصل قرطبة أيام الناصر (330 هـ) فأمر الناصر ابنه الحكم باستقباله، عند نزوله بالأندلس، وباصطحابه معه إلى قرطبة، تكرمة للقالي، فسار معه نحو قرطبة في موكب جليل، واختص أبو علي القالي بالحكم المستنصر، وباسمه طرز كتاب" الامالي" وكان الحكم يعينه على التأليف بواسع العطاء ، ويشرح صدره بالإفراط في الإكرام[3].

---

1. المصدر السابق317/1.
2. "البيان المغرب" لابن عذاري 358/2
3. أ. "كتاب العبر" لابن خلدون : م4 ق1 ،ص316
   ب. "نفح الطيب" للمقري : 386/1

وكان قدوم القالي إلى قرطبة يمثل نهضة في الدراسات اللغوية والأدبية، فعنه أخذ الأندلسيون علوم اللغة، واتخذوه حجة وإماما. وكان الحكم المستنصر يبعث رجالا من التجار لشراء الكتب في الأقطار البعيدة، ويزودهم بالأموال الطائلة، حتى جلب منها مالم يعهدوه من قبل وهو الذي بعث إلى أبي الفرج الأصبهاني بألف دينار لشراء كتاب "الأغاني" فأرسل إليه أبـــو الفرج نسخة من الكتاب قبل أن يصدر في بغداد، وكذلك ألف له كتابا في أنساب قومه بني أمية. ومثل ذلك فعل مع القاضي أبي بكر الأبهري المالكي في شرحه لمختصر ابن عبد الحكم، ومثله فعل مع محمد بن القاسم بن شعبان بمصر, ومحمد بن يوسف الوراق الذي صنف له كتابا ضخما في مسالك إفريقيا وممالكها[1]، كما كان يساعد المؤلفين من الناحية العلمية، فقد بعث إلى الكاتب المصري أبي سعيد عبد الرحمن بن يونس صاحب كتاب " تاريخ مصر والمغرب" كتابا استعان به في تأليف كتابه فيما يختص بالأندلس. واعتنى الحكم عناية فائقة بهذه الكتب حيث جمع في قصره الحذاق في النسخ والمهرة في الضبط والمجيدين لفن تجليد الكتب، فاجتمعت له خزائن من الكتب لم تكن لأحد قبله ولامن بعده إلا ما يذكر عن الناصر العباسي بن المستضئ بالله. وكان عدد فهارس عناوين الكتب فقط أربعا وأربعين فهرسة تشتمل كل فهرسة على عشرين ورقة ليس فيها إلا ذكر أسماء الدواوين لا غير،و أقام للعلم والعلماء سوقا نافقة جلبت إليها بضائعه من كل قطر[2].

---

1. أ."كتاب العبر" لابن خلدون م4 ق1 ،ص316-317
ب. "النفح" للمقري1/ 386
2. أ. "المغرب" لابن سعيد 1/78-79
ب ."نفح الطيب" للمقري 1/385-386

وكان مصير هذه المكتبة الإحراق في عهد المنصور بن أبي عامر، حيث أحرق كتب الدهرية، والفلاسفة بمحضر العلماء مثل الزبيدي، والأصيلي، وابن ذكوان وضاعت البقية الباقية في غمار الفتنة .

وقبل أن نترك الحديث عن الحركة العلمية والثقافية بقرطبة نورد نص ابن حوقل في وصف قرطبة حيث يقول " وهي أعظم مدينة بالأندلس، وليس بجميع المغرب لها عندي شبيه في كثرة أهل، وسعة محل، وفسحة أسواق، ونظافة محال، وعمارة مساجد، وكثرة حمامات وفنادق"[1].

هكذا بلغت قرطبة حاضرة الخلافة درجة رفيعة من الحضارة، وأخذت تشع تأثيراتها على سائر أنحاء الأندلس بل إلى خارج الأندلس، فقد انتشرت فيها العلوم باختلاف أنواعها، من فلك ورياضة وطب وكيمياء وأدب وفنون على نحو تجاوز كل تقدير، مما كان له أكبر الأثر في تفوق الأندلس على غيرها من الأقطار الأوروبية المجاورة.

وينبغي أن نشير إلى فضل خلفاء قرطبة في هذا التقدم الذي أحرزته الأندلس، فمنها خرجت أولى المحاولات في الطيران التي قام بها عباس بن فرناس الذي احتال في تطيير جثمانه حيث كسا نفسه بالريش ومد له جناحين وطار في الجو مسافة بعيدة وفيها خرج أوائل المكتشفين فيما وراء بحر الظلمات (المحيط الأطلسي) المعروف بالأوقيانوس أوالبحر الأخضر، للتأكُّد من وجود أرض تقع غربي هذا المحيط.

الحياة العقلية بالأندلس

ازدهرت الحياة الفكرية في عصر ملوك الطوائف ازدهارا عظيما، فكان يقصد قرطبةَ طلابُ العلم من أروبا، يقول دوزي:" كل فرد بالأندلس يعرف الكتابة والقراءة" لأن العرب إذا فتحوا بلدا بادروا إلى إنشاء

1. المصدر السابق460/1

مسجد ومدرسة فيه، وكان تعليم البنات شائعا عند الأندلسيين، وكان كثيرات منهن يحفظن عدة دواوين من شعر العرب، وينظمن ويترسلن، وبلغ بعضهن إلى درجة الأستاذية في اللغة والأدب، وكان للطب في الأندلس أربع مدارس آهلة بالمدرسين والطلاب من جميع الملل والاجناس، في قرطبة وإشبيلية وطليطلة ومرسية، أما المدارس العامة فكان بقرطبة وحدها (80) مدرسة عامة، وكان للعلماء والشعراء والمؤرخين مجامع علمية وأدبية أشبه بالأكاديميات في العصر الحديث. وذكر أحد المؤرخين بأن مائة وسبعين امرأة في ضاحية قرطبة الشرقية وحدها يعملن يوميا في نقل نسخ من القرآن بالخط الكوفي[1].

المكتبات

اهتم الأندلسيون اهتماما كبيرا بالكتب، وبذلوا مجهودا ضخما في التأليف، كما بذلوا أموالا طائلة في نسخ الكتب وتغليفها والرحلة في طلبها، وقد أنشأ الحكم المستنصر بالله مكتبة جامعة بقرطبة بلغ عدد كتبها (400) ألف كتاب، وكانت فهارسها في (44) كراسة في كل كراسة (50) ورقة ليس فيها غير أسماء الكتب

وكان بالأندلس (60) مكتبة عامة ، بل يقال إن غرناطة وحدها كانت تحتوي على (70) مكتبة عامة في عهد ملوك الطوائف، ولما انهارت الخلافة الأموية نهبت هذه الخزائن، وبيعت كتبها بأبخس الأثمان، وانتقلت إلى الحواضر الجديدة التي أوجدت نهضة علمية أذكتها حركة المنافسة بين الأمراء والملوك. يروي المقري بأن ما جمعه أحمد عباس الوزير بالمرية بلغ 400 ألف مجلد كامل، أما الكتب الناقصة فلم يقف على عددها لكثرتها.

---

1. "حضارة العرب في الأندلس"، ص:64، ليفي بروفنسال ترجمة:دوقان قرقوط

ويروي ابن شكوال بأن عبد الرحمن بن الأفطس كان جماعا للكتب، وقد رتب (06)ستة من الوراقين ينسخون له دائما ،ومتى علم بكتاب قيم عند غيره، طلبه بأعلى ثمن فإن امتنع صاحبه استنسخه ورده إليه.

وكان للنساء عناية بالكتب أيضا يقال إن عائشة بنت قادم كانت حسنة الخط تكتب المصاحف والدفاتر، وتجمع الكتب ولها خزانة كتب عامرة بأعظم المصنفات.

الحركة الفكرية في الأندلس

نلاحظ أن الاهتمام الأول بالأندلس كان منصبا على الكتب الدينية، وكان الفقهاء يتمتعون بمنزلة مرموقة لدى الشعب والحكام معا، وكانت منزلتهم تقترب من منزلة الأمراء، وكثيرا ما كانوا يهددون عروش الحكام بالسقوط إذا آنسُوا منهم انحرافا عن الحق ، وتأتي العلوم اللغوية والأدب في المرتبة الثانية في الاهتمام والعناية إذ هي وسيلة لفهم القرآن والسنة، ثم تأتي في الدرجة الثالثة علوم الهندسة والطب والفلك ولكن عامة الناس نفروا من العلوم الفلسفية، وأحرقوا كتبها في بعض الأحيان، وقد نبغ في عصر ملوك الطوائف أفذاذ من الشعراء والكتاب والعلماء الخالدين مثل ابن حزم المتوفى عام 456هـ، والذي كان واسع الثقافة يُقدّس الرأي، مع تدين وتصوف، يقال إن عدد مؤلفاته 400 مجلد تناهز 80 ثمانين ألف ورقة في الفقه والحديث والجدل والمنطق والشعر ومن أشهرها "طوق الحمامة" وهو أول كتاب في فلسفة الحب، وابن سيدة المتوفى عام 458 هـ صاحب المخصص والمحكم، وابن حيان المتوفى 469 هـ، وهو من أعظم المؤرخين بالأندلس،وله تاريخ "كتاب المبين" يقع في 60 مجلدا وله (50)خمسون مؤلفا، منها "المقتبس في تاريخ الأندلس"

ومن أشهر الأدباء المظفر بن الأفطس حاكم بطليوس المتوفى 460 هـ له ألف كتاب المظفري في (50) خمسين مجلدا.

ومن أمتع كتب التراجم الأدبية في هذا العصر "الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة"، لابن بسام والذي يقع في أربعة أقسام ضخمة، وكتاب "تاريخ علماء الأندلس" لابن الفرضي، "والصلة " لابن شكوال، و"التكملة" لابن الأبار، ومن أشهر الشعراء في عصر ملوك الطوائف :

ابن شهيد وابن دراج وابن زيدون والمعتمد بن عباد وابن عمار وابن حمديس وابن خفاجة.

يقول ليفي بروفنسال: "كان القرن الحادي عشر الميلادي عصر ملوك الطوائف عهدا عرفت فيه إسبانيا أكبر إشراق شعري من غير شك"

ويقول القزويني في حديثه عن مدينة شلب :" قلَّ أن ترى بمدينة شلب من أهلها من لا يقول شعرا ولا يعاني أدبا ، ولو مررت بالفلاح خلف فدانه وسألته عن الشعر لقرض من ساعته ما اقترحت عليه وأي معنى طلبته منه"

وكان العامة يهتزون للشعر، وينظمونه على اختلاف طبقاتهم، حتى الخدم والجواري، وعصابات اللصوص والفتاك كانوا يقرضونه في شتى المناسبات.

دولة المنصور بن أبي عامر

لما توفي الحكم المستنصر بالله في 4 صفر عام 366 هـ ، بويع ابنه الصغير وولي عهده هشام بن الحكم بن عبد الرحمن الملقب بالمؤيد بالله، وكان هشام صبيا لا يتجاوز عمره عشر سنوات، وتمت له البيعة، بفضل وزير أبيه محمد بن أبي عامر، والحاجب جعفر بن عثمان المصحفي، وغالب مولى الحكم وصاحب مدينة سالم، فقد قام هؤلاء الثلاثة بقتل المغيرة أخي الحكم المستنصر بالله والمرشح للخلافة بعده[1].

1. "نفح الطيب" :1/396-399

وكان محمد بن أبي عامر من أسرة عربية غنية،وقدم جدُّه عبد الملك المعافري في طليعة طارق بن زياد، وسلك محمد سبيل القضاء في أول أمره، مقتديا بأعمامه وأخواله، فدرس الحديث، وقرأ الأدب واللغة على يد أبي علي البغدادي، ثم أخذ مكانا ومحلا عند باب القصر يكتب للخدم والمرافقين للخليفة الحكم، إلى أن توصل إلى معرفة السيدة صبح البشكنسية، أم المؤيد هشام زوجة الحكم، فاستأنست به، فطلبت من زوجها أن يوليه بعض المواضع بكورة رية فترقى بسرعة، حيث استمال السيدة صبح بما يقدم لها من هدايا وتحف نادرة، وذكر أنه صنع لها قصرا من فضة، حمل إليها على رؤوس من الرجال، ثم ارتقى حتى أصبح وكيلا لهشام ولي العهد.

وكانت مائدته موضوعة لمن ينتاب داره، ثم أصبح صاحبا للشرطة الوسطى، ثم قاضي القضاة بالمغرب، وعهد إليه الحكم بأخذ البيعة لابنه هشام عام 365 هـ وعند تولية هشام أسقط على الناس ضريبة الزيتون، ونسب شأنها إلى ابن أبي عامر فأحبه الناس لذلك ، وهو الذي قتل المغيرة خنقا.

ثم تعين أن يكون محمد ابن أبي عامر وزيرا لهشام المؤيد بالله، وأبو الحسن جعفر بن عثمان المصحفي حاجبا لدولته، وكان هذا الأخير بخيلا يخترن الأموال، بينما كان محمد بن أبي عامر كريما سخيا، فنال بذلك محبة الشعب والسيدة صبح والدة هشام وصادف أن أغار القشتاليون على قلعة رباح بعد وفاة الحكم بزمن قصير، فاستغاث أهل الثغر فتقاعس المصحفي وخرج ابن أبي عامر يقود الجيش في سنة 366 هـ فانتصر، وغنم ثم عاد فأحبه الجيش والشعب لشجاعته وكرمه.

ثم اتجه إلى مصانعة صاحب مدينة سالم غالب الناصري فقربه إليه، وقلده هشام خطة الوزارتين، ثم تعاقدا معا للإطاحة بالمصحفى في مجريط سنة 366 هـ عندما خرج إلى الصائفة ابن أبي عامر وفتحا معا حصن مولة moula وغنم المسلمون منه غنائم كثيرة، وإثرها مباشرة عزل ابن المصحفي عن رئاسة الشرطة، وأسندت إلى ابن أبي عامر، وقمع أهل الفسق والدعارات حتى ارتفع البأس، وأمن الناس، وآمنت عادية المجرمين من حاشية السلطان حتى لقد قبض على ابن له، فاستحضره في مجلس الشرطة، وجلده جلدا مبرحا كان فيه حمامه ، فانقطع الشر أيامه جملة [1].

ثم تمت المصاهرة بين ابن عثمان وبين ابنته في محرم عام 367 ، ثم عزل الحاجب ابن المصحفي في 13 شعبان من عام 367 وألقي القبض عليه وعلى أولاده فتتبعهم ابن أبي عامر حتى صفى أموالهم، وانتهك حرماتهم حتى باع قصر ابن المصحفى في الرصافة، واستمر الأمر هكذا سنتين، يخرج حينا ثم يعود إلى السجن أحيانا، ثم زج به أخيرا في السجن بعد أن ودع أهله وداع الفرقة ، وكتب إلى ابن أبي عامر في سجنه يطلب منه العفو بعدة قصائد نذكر منها:

هبني أسأت فأين العفو والكرم ... إذ قادني نحوك الإذعان والندم
ياخير من مدّت الأيدي إليه أمـــا ... ترثي لشيخ رماه عندك القلم

صبرت على الأيام لما تولت ... وألزمت نفسي صبرها فاستمرت
فيا عجبا للقلب كيف اصطباره ... وللنفس بعد العز كيف استذلت

لا تأمنن من الزمان تقلبـــا ... إن الزمان بأهله يـــتقلب
ولقد أراني والليوث تهابني ... وأخافني من بعد ذاك الثعلب

1. أ. "البيان المغرب" لابن عذاري367/2
ب. "الذخيرة" لابن بسّام 1-47/4

ولبث المصحفي في سجنه للمرة الأخيرة عدة أيام، ثم أخرج ميتا، وسلم إلى أهله، وليس على جسده شيء يواريه غير كساء خلق لبعض البوابين[1]

وهكذا أخذ ابن أبي عامر ينفرد بالسلطة ويسيطر على الخليفة، فحجر عليه واعتمد على البربر في توطيد سلطانه، فرتب منهم جنوده وأخر رجال العرب وأسقطهم عن مراتبهم ولم تشغله أمور الدولة عن الجهاد، فكانت غزواته تزيد عن الخمسين، وكلها مفخرة له، ولم تهزم له قطُّ راية ولم يعرف الهزيمة في جميع غزواته شتائية أو صائفة.

وفي سنة 368 هـ أقام لنفسه وجنده وأنصاره قصر الزاهرة خوفا من الحساد والأعداء، فانتقل إليه مع غلمانه الصقالبة ، عام 370 هـ ولم يبق له منافس سوى صهره أبي تمام غالب الناصري، فقد قرر كل منهما التخلص من الآخر، دعاه غالب يوما إلى وليمة ولم ينج من القتل إلا بأعجوبة حيث فر بفرسه مما جعل غالب يستنجد بملوك النصارى، فقامت بينهما معارك انتهت بمقتل غالب، فأصبح بذلك سيد البلاد بلا منازع.

وأمر بالدعاء له عقب الدعاء للخليفة في المنابر وجلس على سرير الملك ومحا رسوم الخلافة ولم يبق للخليفة هشام المؤيد بالله سوى الدعاء على المنابر، وكتب اسمه على السكة والطرز وزاد في المسجد وبنى قنطرة ثانية بقرطبة على نهر الـــــوادي الكبير عام 378هـ ثم بنى قنطرة على نهر شنيل باستجة واختتم المنصور حياته غازيا في أرض جليقة وكان يباشر الغزو بنفسه فيما يناهز خمسين غزوة ولم تنكس له في جميعها راية. وفي أرض جليقة بدأ يحس بالمرض وهو في الغزوة، ومرضه يثقل حينا ويخف حينا، ثم اتخذ سرير خشب وضع عليه أعضاءه، وكان يحمل سريره على أعناق الرجال وسحفه منسدل عليه، وعساكر تحف به وتطيع أمره، حتى

---

1. "النفح": 2/124-134

وصل إلى مدينة سالم، واشتد عليه المرض، وأيقن بالموت، وأوصى لابنه بعده، ثم فارق الحياة في 2 رمضان من عام 392 هـ = 1002م ودفن في صحن قصره بمدينة سالم[1].

الحاجب المظفر سيف الدولة عبد الملك بن المنصور

لما علم الخليفة هشام المؤيد بالله بموت المنصور بمدينة سالم، استقدم أبا مروان عبد الملك بن منصور ، وعينه في مكان أبيه ، وذلك في 3 رمضان من عام 392 هـ. وتلقب بالمظفر سيف الدولة ، فبدأ عمله بقمع حركة الفتيان الصقالبة، ونفى بعضهم إلى سبتة.

وكان عبد الملك ورث صفات أبيه في العدل والإنسانية وحماية الشريعة ونصرة المظلوم والجهاد في سبيل الدين، وكان يزور الصالحين والأولياء في المقابر كما كان يزور السجون ويتفقد حال المسجونين ويطلق سراح من طال سجنه.

وذكر أنه كان عاطلا من المعرفة والعلم والأدب ولا يجالس غير جفاة البربر والأعاجم ممن لا يهش لسماع ولايطرب لإيقاع، فبلغت الأندلس في أيامه إلى نهاية الجمال والكمال وسعة الحال، واحتفظ بطبقات أهل المعرفة الذين كانوا في رعاية أبيه من شعراء وخطباء وندماء فأقرهم في مراتبهم ولم ينقصهم سوى الفوز بمجالسته وخصوصيته واتبع خطة أبيه في استقدام البربر من العدوة واستخدامهم في جيشه ، فكان أعظم من قدم في عهده زاوي ابن زيري بن مناد الصنهاجي ومن صحبه معه من إخوته، فاستقبلهم عبد الملك أحسن استقبال وأغدق عليهم الأموال، وأراد رفع منزلة زاوي وعشيرته، فولاه الوزارة، ولكنه رفضها قائلا: بأن خطته لا تعدو الحرب، وأن أقلامه الرماح، وصحائفه الأجساد- أجساد الأعداء

1. "الإحاطة في أخبار غرناطة" لابن الخطيب م 2 ص 104.

والمارقين عن الدين-. وكان مثل أبيه يغزو صيفا وشتاء وفي إحدى غزواته الصيفية، أصيب بمرض الذبحة الصدرية ومات وهو في طريق العودة إلى قرطبة في دير أرملاط guadamellto عام 399 هـ 20 أكتوبر عام 1008م وعدد ابن الخطيب غزواته فكانت سبعا[1].

عبد الرحمن بن المنصور ـ شنجول

لما مات عبد الملك المظفر سيف الدولة عام 399هـ، خلفه أخوه أبو المطرف عبد الرحمن بن المنصور الملقب بشنجول، وتلقب بهذا اللقب بسبب أمه عبدة بنت شانجة النصراني ملك بلبونة sancho garrasabarca. أهدى هذا الملك ابنته عبده إلى المنصور فتزوجها فأسلمت، وحسن إسلامها، وكانت من خيرات نسائه دينا متينا، وحسبا أصيلا، وشنجول تصغير لشانجة جد عبد الرحمن ، وكان أشبه الناس به[2].

ركب شنجول إلى قصر الخلافة غداة وفاة أبيه المظفر، فعزّاهُ الخليفة هشام في أخيه وقلده الحجابة، وسماه المأمون فتلقب في الحين بالناصر، ثم بالمأمون، فكان يدعى بالحاجب الأعلى المأمون، ناصر الدولة، وكان مغرورا بنفسه، فساء تصرفه، فالتمس ولاية العهد من الخليفة هشام في 11ربيع الأول من عام 399 هـ فاستدنى نسبه بالخؤولة لدى هشام إذ كانت أماهما بشكيتين وأن ليس للخليفة ولد يوليه عهده.

وفي اليوم التالي استدعى طبقات أهل قرطبة وأجلس لهم هشاما. أشهدهم فيما أمضاه من الولاية لشنجول بعده دون ذويه وبني عمه من بني أمية، فكوّن لنفسه عداوة الشعب والحزب الأموي لسوء تصرفه، وتهتكه في الملذات، فثار عليه أهل قرطبة وراء أمراء الأمويين برئاسة

1. "تاريخ إسبانيا الإسلامية" أو كتاب "أعمال الإعلام لابن الخطيب"، ص/87
2. "البيان المغرب" لابن عذاري38/2 تحقيق ،إ.ليفي برفنسال ـ دار المكشوف ط2 بيروت1956

المهدي محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر، فهدم بالش والزاهرة، ودخل القصر بقرطبة، فلما علم عبد الرحمن بالثورة، وكان في الطريق إلى الغزوة بالقرب من طليطلة عاد أدراجه إلى قرطبة وكان جل جيشه من البربر، فخذلوه لسوء خلقه وانهماكه في المحرمات، فلم يصل إلى قرطبة حتى تفرق عنه جنده وبقي وحيدا، فألقي عليه القبض ، هو وصاحبه غومس وقتلا وسمرت رأساهما على خشبة طويلة على باب السدة بقرطبة.

وفي الليلة التي ثار فيها ابن عبد الجبار، تنازل له هشام المؤيد على الخلافة فتلقب بالمهدي الذي اعتمد على أراذل العامة وأسافلهم، وأقاموا الأفراح والولائم والأعراس، وداموا كذلك أياما تباعا ينتقلون من موضع إلى آخر بالمزامر والملاهي، ثم أساءوا إلى الجنود، وخربت الزاهرة، ومضت كأمس الدابر وخلت منها الدسوت الملوكية والدساكر[1].

ثم أخرج للناس رجلا ميتا قيل إنه يهودي أو نصراني، فزعم أنه هشام المؤيد ، وشهد الوزراء والعدول على ذلك، ثم أسقط أكثر من سبعة آلاف من العامريين وأعلن بغضه للبربر، فهجم الغوغاء دورا لبني زاوي ابن زيري، وغيره من زعماء البربر بالرصافة، وشجع المهدي على تقتيل البربر أينما وجدوا، فقامت مذبحة بشعة قتل فيها عدد كبير من البربر، واضطروا إلى الخروج من قرطبة إلى الثغر، وانضم إليهم سليمان بن الحكم بن سليمان بن الناصر، فسمي إمام البربر، فاجتمعوا وولوه عليهم وعقدوا له الخلافة في شعبان من عام 399 هـ.

وتلقب بالمستعين بالله، و لما وصلوا إلى قلعة رباح في طريقهم إلى الثغر الوسط، أرسل إليهم المهدي رسولا يؤمنهم، ويدعوهم إلى العودة إلى

1. "نفح الطيب" 122/2

قرطبة. ذلك الرسول هو عباس البرزالي، ولم يجيبوه بل قالوا: لولا أنك رسول وتاجر لقتلناك، وسيجازيه الله بما فعل ثم وصلوا إلى وادي الحجارة وهزموا جيش واضح الفتى صاحب طليطلة والثغر الأوسط ودخلوها عنوة واستباحوا أهلها ثم وصلوا إلى مدينة سالم، ولكن واضحا صدّهم عنها وكتب إلى سائر الثغور إعلانا يقول فيه "من حمل شيئا من الطعام إلى محلة البربر فقد حل ماله ودمه"[1]. فأقام البربر زهاء خمسة عشر يوما يقتاتون بحشيش الأرض،فلما اشتد عليهم الأمر، بعثوا إلى شانجة، sanchogarcia المعروف عند العرب بابن مامة دونة بن غرسية قومس قشتالة mumadona يطلبون مسالمتهم ومساعدتهم على أعدائهم، فأجابهم إلى طلبهم على شروط قاسية فأرسل إليهم ألف عجلة من الدقيق، والعقاقير وأنواع المآكل وألف ثور وخمسة آلاف شاة ثم وصل إليهم بجيشه وفي محرم عام400هـ هزم جيش واضح بالقرب من قلعة عبد السلام ثم وصلوا إلى قرطبة ووصل إلى أملاط في 11 ربيع الأول400هـ، والتقى الجيشان وانتهت الموقعة بهزيمة جيش قرطبة ووضع البربر السيف على أهل قرطبة.

وذكروا أن عدد القتلى من أهل قرطبة تجاوز عشرة آلاف،وقيل ثلاثين ألفا ثم أظهر لهم هشاما ،فقالوا لابن ذكوان رسول المهدي إليهم: "سبحان الله يا قاضي، يموت هشام بالأمس وتصلي عليه أنت وغيرك، واليوم يعيش وترجع الخلافة إليه،وجعلوا يتضاحكون منه"[2]. أما هشام المؤيد فيقال إنه اعتذر لسليمان،وخلع له نفسه وذكر بعض المؤرخين أن محمدا بن سليمان قد اغتاله خنقا في ذي القعدة من عام 404هـ وأشاع أنه فرّ لوجهه وعمل سقاء بالمرية، وقال آخرون إن ابن عباد استحضر شيخا مأفونا حجبه عن الناس، وزعم أنه هشام المؤيد حتى يستميل قلوب

1. "البيان المغرب" لابن عذاري89/3
2. "البيان المغرب" لابن عذاري 89/3

الناس إليه ويكسب بذلك سندا شرعيا.ثم انتقل سليمان مع جملة جيشه البربري إلى مدينة الزاهرة، بينما أقام بنو حمود العلويون في شقندة، ثم قسم بعض كور الأندلس على رؤساء القبائل البربرية إرضاء لهم. فأعطى"البيرة" لحبوس بن ماكس الصنهاجي وذريته، و"سرقسطة" لمنذر ابن يحي التجيبـــي و"جيان" لبني برزال وبني يفرن،وجوفي البلاد لمغراوة، و" شذونة" ومورو لبني دمر، ثم منح عليا بن محمود "ولاية سبتة: والقاسم بن حمود ولاية طنجة وأصيلا والجزيرة الخضراء.

وبذلك غلب العنصر البربري على دولة سليمان المستعين،مما جعل الفتيان العامريين يفرون إلى الشرق ويكونون هناك دولا لهم في بلنسية وشاطبة، ودانية ولرقة، وميورقة والمرية. ويذكر ابن الخطيب[1] أن بعض العامريين أرسلوا إلى علي بن حمود أمير سبتة وثيقة شرعية منسوبة إلى هشام المؤيد وبخطه، عهد فيها للأمير بعده إلى علي بن محمود، فاتجه إليهم ابن حمود بالمرية حيث اجتمع بخيران العامري وغيره، فاتجهوا جميعا إلى قرطبة فخرج إليهم سليمان في محرم عام 407 هـ فدارت بينهما المعركة انتهت بدخول علي بن حمود قرطبة في 22 محرم عام407هـ،ثم أمر بإحضار سليمان فضرب عنقه بيده، ثم ضرب عنق أخيه عبد الرحمن، ثم عنق أبيهما الشيخ و في23محرم من407هـ بويع علي ابن حمود و تلقب بالناصر لدين الله.

ولكن حكمه لم يدم، فقد هجم عليه بعض فتيانه من صقالة بني مروان وهم: منجح ولبيب وعجيب، وقتلوه في حمام قصره في غرة ذي القعدة من عام 408 هـ وخلفه أخوه القاسم بن حمود ، فقتل قتلة أخيه، وسار سيرة حسنة في أول أمره، ولكن أمراء شرق الأندلس، كزهير، وخيران العامريين قد بايعوا المرتضي بالخلافة، وهو عبد الرحمن بن عبد الملك بن الناصر،

1. "تاريخ اسبانيا الإسلامية"، أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلال من ملوك الإسلام، ص/128 وما بعدها تحقيق و تعليق :ايفي بروفنسال ط2 دار المكشوف بيروت لبنان 1956.

وكونوا له جيشا كثيفا لفتح قرطبة، فعرج هذا الجيش على غرناطة لمحاربة بني زيري الصنهاجيين، فلما اشتبك الفريقان عام 409 هـ انخذل أمراء الشرق الأندلسين وفر المرتضي، ولكنه قتل بالقرب من وادي آش، وعلى الرغم من انتصار زاوي بن زيري فقد آثر الخروج من الأندلس والعودة إلى المغرب، استنكارا لما رآه من غدر أهل الأندلس، وما عاينه من خستهم ونذالتهم فرحل مع أولاده إلى إفريقيا.

وترك ملوك الطوائف يتناحرون ويتناطحون فيما بينهم إلى أن جاءهم المدد من دولة المرابطين بقيادة يوسف بن تاشفين فلقّن الأعداء درسا قاسيا أسكتهم لأزيد من ثلاثة قرون، كما التقط ملوك الطوائف الأقزام من عروشهم الخاوية، بعثهم إلى المغرب في سفينة وأراح منهم الأندلس وزرع الأمن في البلاد وأذهب الخوف من نفوس العباد، فعاشت الأندلس في هدوء ونعيم واطمئنان وجاءت بعد المرابطين الدولة الموحدية فاستقرت الأمور وهدأت الأحوال وازدهرت الحضارة وانصرفت الأمة إلى البناء والتشييد إلى أن جاءت الشيخوخة إلى الإمبراطورية الموحدية وكان الضعف والانحلال، وهي علامة الزوال ﴿وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾[1]، ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ﴾[2]. سنة الله في خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلا — لله الأمر من قبل ومن بعد.

الجزائر في 20 ربيع الثاني 1428 هـ/ 08 ماي 2007م

1. سورة أل عمران، الآية 140.
2. سورة يوسف، الآية 111.

مصادر ومراجع البحث

1. "الإحاطة في أخبار غرناطة" (1-4) أربعة مجلدات، لذي الوزارتين لسان الدين بن الخطيب (ت :776هـ - 1374م)، تحقيق : محمد عبد الله عنان. الطبعة الثانية : 1393 هـ 1973 م وط1 بالنسبة لـ م 2، و 3 و4 الشركة المصرية للطباعة والنشر، القاهرة. الناشر : مكتبة الخانجي بالقاهرة.
2. "أزهار الرياض في أخبار عياض" (1-5) خمسة أجزاء، لشهاب الدين أحمد بن محمد المقري التلمساني (ت 1041هـ - 1631م). تحقيق : مصطفى السقا، إبراهيم الأبياري، عبد الحفيظ شلبي بالنسبة للأجزاء الثلاثة الأولى. مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة : 1358 هـ - 1939م. وحقق الجزء الرابع الأستاذان : محمد بن تاويت، سعيد أحمد أعراب. والجزء الخامس الأستاذان : د. عبد السلام الهراس، سعيد أحمد أعراب. مطبعة فضالة، المحمدية، المغرب.
3. "الأعلام: قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين". (1-13)عشرة أجزاء وثلاثة مستدركات، لخير الدين الزركلي (ت 1382 هـ - 1967م)، الطبعة الثانية (1389 هـ - 1976 م)، مطبعة كرستاتومس ولشركاه – بيروت.
4. "بغية الملتمس في تاريخ أهل الأندلس"، أحمد بن يحي بن أحمد بن عميرة (ت: 599هـ - 1203م) دار االكاتب العربي 1967، مطابع سجل العرب القاهرة.
5. "البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب" (1-4) أربعة أجزاء لابن عذاري المراكشي،(في سنة 712 كان حيا). حققه جماعة ج. س. كولان وإ.ليفي بروفنسال والدكتور إحسان عباس : 1967 م ط1. دار الثقافة، بيروت، لبنان

6. "تاريخ إسبانيا الإسلامية"، أو كتاب أعمال الاعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام لابن الخطيب لسان الدين - تحقيق إ.ليفي بروفينسال دار المكشوف ، بيروت لبنان 1956.
7. "تاريخ العلامة ابن خلدون" : كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر (1-7) سبعة مجلدات. لابن خلدون عبد الرحمن بن محمد الحضرمي (ت- 808هـ - 1406م)، الطبعة الثالثة : 1967م.منشورات دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر، بيروت 1968.
8. "حضارة العرب في الأندلس": ليفي بروفنسال- ترجمة:دوقان قرقوط منشورات دار مكتبة الحياة- بيروت.
9. "ديوان ملك غرناطة يوسف الثالث" (كان حيا في 819 هـ - 1417م)، تحقيق : عبد الله كنون، الطبعة الثانية : 1965 م، دار الجيل للطباعة - مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة.
10. "الذخيرة في محاسن الجزيرة" (1-6) ستة أجزاء لابن بسام أبي الحسن علي الشنتريني ، (ت : 542 هـ - 1147م)، تحقيق : الدكتور إحسان عباس. الدار العربية للكتاب، دار صادر بيروت، 1975.
11. "قصة الأدب في الأندلس" (1-2) جزآن ، محمد عبد المنعم خفاجة، منشورات مكتبة المعارف، في بيروت: 1962م.
12. "كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار" ، وهو معجم جغرافي تاريخي لأبي عبد الله محمد عبد الله بن عبد المنعم الحميري (ت: 866 هـ - 462م) عناية وتعليق وتصحيح : إ. ليفي برفنسال ،مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة : 1937م

13. "اللمحة البدرية في الدولة النصرية"، لأبي عبد الله محمد لسان الدين بن الخطيب، تحقيق : محب الدين الخطيب. المطبعة السلفية ومكتبها، القاهرة : 1347هـ

14. "المغرب في حلى المغرب" (1-2) جزآن.لابن سعيد المغربي (ت: 685هـ - 1286م)، تحقيق : الدكتور شوقي ضيف، الطبعة الثانية. - دارالمعارف - بمصر.

15. "نفح الطِيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب" (1-8) ثمانية مجلدات. ، لأديب المغرب وحافظه الشيخ أحمد بن محمد المقري التلمساني (ت1041 هـ - 1631 م).، تحقيق: الدكتور إحسان عباس، دار صادر بيروت.